الاســـم واللـــقب: فريدة كافي، حنان بوزينة

الدين الإسلامي والتعايش الثقافي، روجيه غارودي نموذجا

ملخص:

يعتبر روجيه غارودي واحدا من أهم المفكرين المعاصرين، اهتم بعدة مسائل فكرية أهمها القضايا السياسية الراهنة التي أفرزتها بعض التحولات السياسية الحاسمة في التاريخ الانساني المعاصر.

وفي ظل التوترات السياسية الاخيرة التي شهدها العالم، خاصة ما يحصل اليوم في عالمنا العربي ما يعرف بثورات الربيع العربي، وما آلت إليه علاقة الغرب بالشرق، أصبحنا بحاجة إلى صياغة أو إحياء لثقافة العيش المشترك، والحوار الدائم القائم على قبول الآخر المختلف والاعتراف به، واحترام قناعاته وخصوصياته. وهذا ما اقترحه غارودي الذي قدّم الدين الإسلامي كمشروع حضاري تتوفر فيه إمكانيات فتح حوار بين مختلف الحضارات نظرا لتوفره على ثلاثة مضامين جعلها غارودي مهمة من اجل جعل العالم مكان واحد يحوي الجميع، تتمثل هذه المضامين في التعالي الإلهي ووحدانيته الذي يجعل من الله سيد العالم لتنتفي المركزية الغربية، بالإضافة إلى الجماعة أو الأمة والتي تختصر مجموع المجتمعات إلى مجتمع واحد مبدأه الإسلام وغايته العيش المشترك والتآلف، وأخيرا المسؤولية التي تحمل معاني الاعتراف بالأخر والتضامن معه.

مقدمة:

في ظل الصراعات السياسية والإثنية والفكرية والدينية التي نعيشها في هذا العصر، احتدم النقاش حول مسألة حوار الحضارات، فبرزت عدة خطابات سياسية وفكرية مساندة أو معارضة لها، ولعلنا لا نبالغ اذا قلنا أن من اهم النظريات التي أفرزتها هذه التطورات هي نظرية هنتنغتون حول صدام الحضارات، التي تسلط الضوء عن موقف هنتنغتون من الآخر أي الانسان الذي لا ينتمي

الى العالم الغربي، فتزايدت الدعوة الى الصدام الحضاري خاصة بعد أحداث 11سيتمبر 2001.

انطلاقا من هذا، تكون الدعوة إلى الحوار بين الشعوب والأمم والحضارات جديرة بالتأمل والالتفات إلى حقيقتها، خاصة حين تأتي من قبل مفكرين عاشوا تجارب إنسانية خصبة وطويلة يجتمع فيها الإيمان مع الإلحاد والألم مع الأمل، فإذا كان هنتنغتون أكد على فكرة الصراع، وإذا كان فوكوياما روّج لفكرة نهاية التاريخ، فنحن بحاجة إلى وجهة نظر اخرى تقل من حدة الصراع وتقدم بدائل انسانية نحن بحاجة اليها في هذا الوضع الراهن. ومن بين المفكرين الذين حاولوا جاهدين نشر السلام العالمي، نذكر المفكر والفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي، الذي اشتهر بمشروعه العالمي والمتمثل في إمكانية فتح حوار بين الحضارات، انطلاقا من عدة مقترحات قدمها تكون كفيلة حسب رأيه بالخروج من الأزمة الحضارية والتخلص من أغلال الصراع والعداء والسيادة الغربية على العالم، ومن أهم مقترحاته ان يكون الاسلام بداية هذا المشروع الانساني، لكن السؤال المطروح هنا: هل يمكن للإسلام أن يكون مشروعا لحل أزمة العصر وضرب مفهوم الصراع؟ وما هي الخصائص التي جعلت من الإسلام مشروعا للعيش المشترك؟

أولا: انتقادات غارودي للديانة اليهودية والمسيحية

من يقرأ لروجيه غارودي سيرى انه يمنح كامل ثقته للإيمان، الذي يرى فيه شحنة الأمل المتبقية التي نطمح من خلالها –في ظل الصراع والفتن– أن نغير من الوضع الراهن، لنؤسس مستقبلا يمكن ان يحوي الجميع، فالإيمان هو الذي سيكشف عن إمكانيات الكون الناقصة والتي تتخفى وراءه، ليخرجها إلى دائرة الواقع كي نعمل على سد النقص بطريقة تجعل المشاركة للكل بعيدا عن الحلول الجزئية والمنازعات الفردية، ولكن غارودي هنا لا يقصد الإيمان الذي يظل كشكل من اشكال الخطابات الجوفاء، فنحن في حاجة إلى فعل إيماني يترجم على ارض الواقع، فالتغيير لا يتحقق بالتفكير وحده، لأن التفكير وحده لا

يصنع واقعا، «فالإيمان ليس فقط شفويا؛ طقسيا، لكن على العكس هو الجزء غير المرئي من الفعل، مثلما الفعل هو التعبير المرئي للإيمان»[1]. وبالتالي فالمقصود بالإيمان ذلك الذي يحتضن الفعل الإنساني لخلق كل ما هو إنساني ذو بعد كوني. لأننا اليوم في أمس الحاجة إلى « فعل، وهو قبل كل شيء مسلمة خيار، رهان، يوّجه حياتنا كلها: هل للعالم وحدة، ومعنى، وكأنه عمل فتيّ لا يني يولد مع مستقبل نحن مسؤولون عنه؟ ... الإيمان هو القرار المتجدد أبدا، بالتوحد مع ذلك الكل»[2] لا أن يجعل من العالم فرقا متنازعة فيما بينهم، مما تولد عن هذه النزاعات حتى ولو لم تعلن عن نفسها عالما بلا معنى، عالم دون مصير. ولكن عن أي إيمان يتحدث روجيه غارودي؟ أو بالأحرى أين يوجد مثل هذا الإيمان الذي يبشر بحياة مشتركة وفكر مشترك؟

ومن خلال دراسات معمقة لمختلف الديانات، تبيّن لغارودي أن الإيمان اليهودي واليهودية كدين أصيل كانت لديها إسهامات فعالة في تاريخ الإنسان، «حيث تعتبر إمتدادا لديانة إبراهيم عليه السلام وهي بذلك تقر بالتعالي الجوهري والمبدئي لله عن الإنسان والطبيعة فهي إذن ديانة توحيدية يتجلى التوحيد في مختلف إسهاماتها»[3]. كما أنها ديانة «أعطت مفهوما جديدا للزمن والتاريخ، إنه زمن الوحي (temps de révélation)، الزمن الذي سيشارك فيه الإنسان في صنع التاريخ بدل الاكتفاء بتذكر الماضي والخضوع له، الزمن الذي يرتبط فيه الإنسان بالإله ليساهم في الإبداع. وقد بدا ذلك واضحا في أهم ما أضافته اليهودية من معان وهي ثلاثة: العهد، الخروج، الوعد»[4]. إلا أن اليهود عمدوا إلى تحريف دينهم واستبدلوا ركائزه بثلاث أساطير أدخلت العالم في دوامة صراع لم تنتهي، والمتمثلة في أرض الميعاد، شعب الله المختار، أرض بلا شعب لشعب بلا أرض. ففشلت بذلك اليهودية في أن تكون مشروعا حضاريا، وفشل الإيمان اليهودي في أن يؤسس لحياة مشتركة تتعايش فيها جميع الثقافات، حيث اقتصر فقط على الفئة القليلة لليهود بصفتهم شعبا مختارا والابن المدلل للإله.

ثم انتقل روجيه غارودي إلى الديانة المسيحية – والتي كان يعتقنها قبل إسلامه– ليكتشف أنها لم تسلم كذلك من التحريف فبعد أن كانت رسالة للحب والتسامح أصبحت بعد سيدنا عيسى عليه السلام ديانة للعنصرية والاختلاف، «فالمسيحية كاليهودية لم تسلم من التحريف والتوظيف السياسي وأنها وجدت صعوبة منذ ظهورها في إحداث القطيعة مع النزعة العشائرية والكهنوتية فقاومت في البداية ولكنها لم تحافظ على طابعها الأول والأصيل وانتهت إلى تمثل مذاهب متعارضة واستيعاب موروثات متناقضة فأصبحت محرفة ومشوهة»[5]. وبالتالي فالمسيحية الحقة حسب روجيه غارودي تكمن في التخلي عن الذات، والتخلي عن انتماءاتنا الجزئية والقطيعة المطلقة، وخاصة العهد القديم. أي أن المسيح عيسى عليه السلام يدعونا إلى التخلص من الأنا الأنانية التي تخلف وراءها كل معاني النرجسية والفردانية ملغية في ذلك اجتهادات الغير وهذا ما جسده العهد القديم أي اليهودية المزيفة التي تجعل من نفسها شعبا مختارا وتجعل من الباقي شعوبا عبيدا لها[6]. ولكن المسيحيين رفضوا أن تكون ديانتهم محرفة فتمسكوا بها تمسك السلحفاة بقوقعته، وهذا حال دون نجاحها في أن تكون حوارا عالميا سلميا، فظلت حوارا غربيا عنصريا، لتنتهي رحلة بحث روجيه غارودي عند الديانة الإسلامية، كآخر الديانات السماوية التوحيدية، ومعجزتها القرآن الذي أنزل على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، أرسل لكافة الناس جميعا دون تحديد. إن الإسلام في نظر غارودي هو الدين الأزلي والخالد، هو الدين بألف ولام التعريف»[7]. فرسالته الكونية هي التي جعلت منه دينا للتسامح والترحيب بالآخر، دينا يتآلف فيه الاختلاف، بحيث تجتمع جميع الثقافات العالمية رغم اختلافها، فالإله واحد والتوحيد للواحد الأحد، فصحيح أن الإسلام لم يتعرض للتحريف، إلا أنه حسب رأي غارودي تعرض للفهم الخاطئ، الذي أوقعه في مرض الأصولية، فغارودي «يعتبر أن النزعات الإسلامية الأصولية، تخون الإسلام وتشوه تعاليمه، على ما يظهر ذلك لدى من يدعوهم الفقهاء الآتين من خارج الإسلام، إذ يدعون بأنهم حراس الاستقامة ويعتبرون أنفسهم موظفي المطلق، ومن هنا يدعو غارودي إلى إحياء الشريعة في حقيقتها، بقدر ما يحمل على فقه الماضي وعلى أصحاب النزعات

الشكلية والقراءات الحروفية الجامدة ... قراءة النصوص المقدسة بعيون الموتى»[8]. وقد أدت تلك القراءة الجامدة إلى خلق نزعة التطرف الإسلامي أو ما يسمى بالأصولية التي تعني حق امتلاك الحقيقة المطلقة دون إعادة أي نقاش حول تلك الحقيقة مما يجعل الديانة الإسلامية ديانة جامدة حبيسة القرن السابع للهجري وهذا ما دفع روجيه غارودي إلى القول بـ: «أن الخطأ الأساسي والقاتل لمستقبل الإسلام هو بالضبط أن يرفض مبدأ الحركة هذا وبذلك يغدو عاجزا عن إعداد مشروع مستقبلي لحل مشكلات زمنه»[9]. فالأصوليين الذين أعطوا الصورة الخاطئة للإسلام وهذا ما سهل على أعدائه اللعب به وتقديمه كمسرحية كوميدية مستهزئين بالرسول تارة ومشككين في رسالته تارة أخرى، وهذا ما قامت به إحدى الصحف الدنمركية وما فعلته كذلك جريدة شارلي إبدو الفرنسية... وربما السبب في الركود الذي يعاني منه الإسلام في الوقت الذي يمكنه أن يصبح مشروعا حضاريا، وعليه يدعو غارودي لإحيائه عبر التجاوز الحتمي لمرض الأسلمة التي منها يثرثرون حول الماضي، كأن كل المشكلات تم حلها نهائيا في الماضي، كأنها قراءة القرآن بعيون الموتى مثل الآخرين أيضا، من المسيحية إلى اليهودية... الذين يقرءون نصوصهم بعيون الموتى»[10]. في مقابل «ضرورة توجيه كامل الأنظار إلى الإسلام بصفته الحل الوحيد الذي يخرجنا من مآزقنا المعاصرة. فالبعض نجده يبحث عن الديانة بين طيات الماضي كما لو كان الإسلام عصيّا على الفهم بعقول الحاضر والمستقبل، لم يتوقف الإسلام عن المناداة بالتأمل الشخصي، وبإعمال الفكر والعقل والحواس من أجل المشاركة في الخلق الإلهي المتجدد دائما أبدا»[11]. تدعونا هذه الخطوة إلى إحياء الدين الإسلامي في صورته الحقيقية لا بصورته المزيفة التي صورها به الأصوليون. ولعل هذا ابرز دليل وبرهان على أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان وليس مقتصر على شعب معين أو فرقة معينة فهو دين البشرية. ولكن ما المميز في الدين الإسلامي حتى يختاره غارودي كحل للازمة العصرية وكحوار سلمي تتعايش فيه جميع الثقافات؟

ثانيا: المضامين الكونية للدين الإسلامي

بعد فشل اليهودية والمسيحية الذين ظلا شكلا من أشكال الحوارات الغريبة في محاولة توحيد العالم، وبعد فشل مختلف الأنظمة الدولية في فك الصراع والنزاع بين شعوب العالم، اعتبر غارودي أن الإسلام يمكن أن يكون الحل الأخير لأمراض العصر التي تحركها القوى المادية الرأسمالية، لأنه وجد فيه ما لم يجده في الديانات الاخرى.

هناك ثلاثة مضامين مهمة في الدين الإسلامي كفيلة بجعل العالم على اختلاف شعوبه وتعدد ثقافاته وتنوع هويّاته مكان واحد للعيش المشترك بعيدا عن كل المركزيات التي تجعل من الغرب سيدا وحاكما ومحتكما إليه، وهذه المضامين تتمثل في:

أولا: التعالي الإلهي ووحدانيته: ومن [رز معاني التوحيد هو جمع المختلف من الأمور تحت فكرة واحدة من شأنها أن تساهم في إلغاء التناقضات الموجودة فـ«القول بالتعالي الإلهي يعني التوحيد والتنزيه فالله واحد لا شريك له. والإسلام يقوم منذ البداية على نفي كل الآلهة، أي الإلحاد والكفر بكل الآلهة التي تزعم أن لها سلطة مقدسة متعالية. وعلى مبدأ التوحيد يقوم الكون والوجود»[12]. وبمجرد التسليم بهذا المضمون والأخذ به تتحقق الوحدة العالمية تحت سلطة إله واحد لا شريك له، إله كل البشرية وليس إله شعب معين كما توضحه ذلك الديانات اليهودية والمسيحية المحرفتين باعتمادهما على فكرة الشعب المختار وفكرة الخلاص المسيحي. ويمكن تلخيص هذا المضمون في سورة الصمد التي ترجع كامل السلطة والتدبير والقدرة إلى الله سبحانه وتعالى: بعد بسم الله الرحمن الرحيم: { قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴿1﴾ اللهُ الصَمَدُ﴿2﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴿3﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴿4﴾}[13]. كما يوحد فعل التوحيد بين الانسان وربه، بحيث يكون الحضور الإلهي دائم في أفعاله وفي أقواله هي جميع خطواته وهذا ما يجعل «المسألة المركزية في الإسلام، في جميع مظاهره هي هذه الحركة المزدوجة من مدّ الإنسان نحو الله وعودة الله إلى الإنسان»[14]. وهذا ما يجعل كذلك من العالم بيتا عائليا خال من الصراعات والخلافات والفروقات، التي تنجم عن تفكير

عنصري بلا مرجع أخلاقي. ، فالتسليم بأن الله هو مالك السموات والأرض هو حقيقة مطلقة تنتفي معها كل الادعاءات التي جعلت من التاريخ تاريخا للأقوى دون منازع.

ثانيا: الجماعة أو الأمة: والمقصود هنا «أن المجتمع الإسلامي كائن واحد، بحيث لا يوجد شيء يفصل بين العقيدة والنظم الأخرى. فالمجتمع الإسلامي لا ينفصل فيه الإيمان عن العمل والعقيدة عن السياسة والغايات والقيم الأخلاقية عن العلم والاقتصاد، فلا يمكن للمسلم أن يعيش منشطرا بين عقيدته وضميره وإيمانه من جهة وحياته العملية الاجتماعية من جهة أخرى، وبالتالي فلا مجال للفصل والقطيعة بين العقيدة والسياسة ولا بين الأخلاق والاقتصاد ولا بين العلوم والحكمة»[15].

ثالثا: المسؤولية: ولا نقصد هنا المسؤولية الذاتية، أي أن يكون الفرد مسؤول عن ذاته فقط، بل نقصد المسؤولية ببعدها الجماعي، أي نكون مسؤولين عن بعضنا البعض؛ وهذا يعني أن «المسئولية الإسلامية، تحمل بعدا جماعيا فكل فرد في الأمة الإسلامية يشعر بأنه مسؤول لا عن ذاته الفردية فحسب وإنما عن كل الآخرين، فجميع الأفراد متضامنون ولذلك فإنه حتى في فترات التجزئة وتشتت البلاد الإسلامية يبقى الشعور التضامني قائما وهذا يدل على أن أفراد الأمة لا يتعاقدون فيما بينهم نتيجة افتراض نظري مجرد، كما هو الحال عند روسو وإنما نتيجة اختيار مشترك للأهداف والقيم»[16]. ولهذا فالدين الإسلامي دين أصيل وليس عنصري كما نعته البعض، إنه دين الإنسانية كلها دون تمييز، لأنه جاء مكملا للديانتين اليهودية والمسيحية وشمل كل البشر ولم ينزل على قوم معين، كما أنه لم يرفع قوم على قوم ولم يعد شعبا دون الأخر.

خاتمة:

من خلال ما تم عرضه، نرى كيف جعل روجيه غارودي من الإسلام مشروعا حضاريا تلتقي فيه جميع ثقافات العالم رغم تعددها وتنوعها، فالإسلام ليس دين العرب بل هو دين

الانسان بصفة عامة، فمعظم النزاعات بين المجتمعات سببها الدين والعرق، ولو وجّه الاهتمام إلى الإسلام كدين للتسامح والمحبة والاعتراف بالآخر، لتمكنت البشرية من تجاوز معظم مشكلاتها، وتصبح جائزة نوبل للسلام جائزة حقيقية، فمن المخزي أن يحتفل بيوم السلام العالمي، في حين هناك أراضي تغتصب ودماء تسفك، ولهذا يدعونا غارودي إلى اللجوء إلى الإسلام لما يحتويه من قيم انسانية عالمية.

فتلك الأبعاد الكونية للإسلام التي تجعل من جميع البشر إخوة يجمعهم تفكير مشترك ومصير مشترك ومستقبل مشترك بعيد عن مفاهيم الصراع العرقي والديني والثقافي. وعلى الرغم من صعوبة تجسيد هذه المضامين ذات الأبعاد الكونية على ارض الواقع، نظرا لوجود عدة عراقيل يصعب تجاوزها في كثير من الاحيان، إلا أن مشروع غارودي للسلام والعيش المشترك يبقى ممكنا مادامت هناك اصوات تسعى لجعل الانسانية غاية وليست وسيلة.

الإحالات:

---

[1] روجيه غارودي، حفارو القبور، الحضارة التي تحفر للإنسانية قبرها، ترجمة عزة صبحي، ص 151.

[2] روجيه غارودي، نحو حرب دينية جدل العصر، ترجمة صياح الجهيّم، ص 100 .

[3] محسن الميلي، روجيه غارودي والمشكلة الدينية، ص 96 .

[4] ، محسن الميلي، روجيه غارودي والمشكلة الدينية، ص 96.

[5] محسن الميلي، روجيه غارودي والمشكلة الدينية، ص 109 .

[6] روجيه غارودي، الولايات المتحدة طليعة الانحطاط، كيف نحضر للقرن الحادي والعشرين، ترجمة مروان حموي، ص 84 .

[7] محسن الميلي، روجيه غارودي والمشكلة الدينية، ص 207 .

[8] علي حرب، الاستلاب والارتداد، الإسلام بين روجيه غارودي ونصر حامد أبو زيد، ص 28- 29.

[9] روجيه غارودي، نحو حرب دينية جدل العصر، ترجمة صيّاح جهيم، ص 40 .

[10] روجيه غارودي، حفارو القبور، الحضارة التي تحفر للإنسانية قبرها، ترجمة عزة صبحي، ص 28.

[11] روجيه غارودي ،حفارو القبور، الحضارة التي تحفر للإنسانية قبرها، ترجمة ذوقان قرقوط، ص 27 – 28 .

[12] محسن الميلي، روجيه غارودي والمشكلة الدينية، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان ط1، 1993، ص 208 .

[13] القرآن الكريم، سورة الإخلاص، الآيات [1- 2- 3- 4].

[14] روجيه غارودي، وعود الإسلام، ترجمة ذوقان قرقوط، ص 25 .

[15] محسن الميلي، روجيه غارودي والمشكلة الدينية، ص216.

قائمة المصادر والمراجع:

1/ قائمة المصادر

*القرآن الكريم

1. روجيه غارودي، الولايات المتحدة طليعة الانحطاط، كيف نحضر للقرن الحادي والعشرين، ترجمة مروان حموي، دار الكتاب للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة دمشق، سوريا، ط1، 1998.
2. روجيه غارودي، حفارو القبور، الحضارة التي تحفر للإنسانية قبرها، ترجمة عزة صبحي، دار الشروق، القاهرة، ط3، 2002.
3. روجيه غارودي، نحو حرب دينية جدل العصر، ترجمة صياح الجهيّم، ، دار عطية للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ط2، 1997.
4. روجيه غارودي، وعود الإسلام، ترجمة ذوقان قرقوط، دار الشرقي، بيروت مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، 1980.

قائمة المراجع:

1. علي حرب، الاستلاب والارتداد، الإسلام بين روجيه غارودي ونصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1997.
2. محسن الميلي، روجيه غارودي والمشكلة الدينية، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان، ط1، 1993.